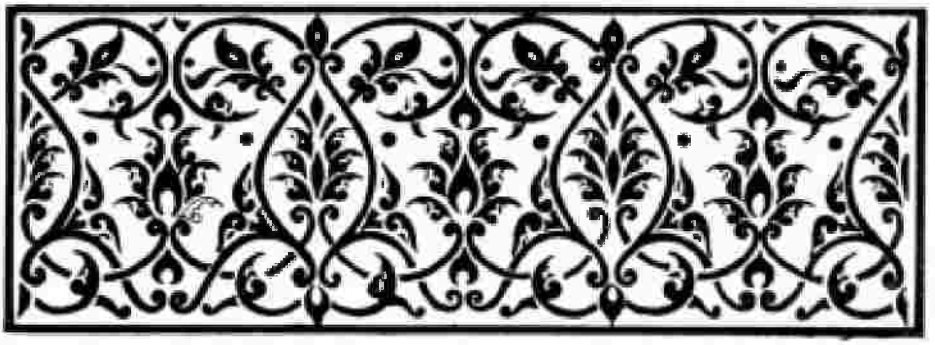

# قصة الفتية المغررين

اتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا أمريكا أن يكشفها كولومبس. وأشار أصحاب هذه النظرية إلى وجود كلمات عربية في لغة هنود أمريكا، وإلى أن كولومبس وجد في رحلته الثالثة زنوجًا وذهبًا إفريقيًا في جزائر الهند الشرقية، وأن مدينة بعض الجماعات الوطنية في أمريكا تشبه المدينة الإسلامية إلى حد كبير(١).

ولسنا نعرض هنا لبحث هذه النظرية، ولكنا لا نشك في أن العرب اتخذوا الأساطيل في المحيط الأطلسى الدفاع عن ملكهم في المغرب والأندلس. وطبيعي أنهم عرفوا شيئًا عن سواحل هذا المحيط وعن الجزائر غير البعيدة عنها. ولكن في بعض المصادر التاريخية العربية ما يشهد بأنهم حاولوا النفوذ إليه والتوغل فيه.

ومن ذلك حديث فتية من مدينة لشبونة حول القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، قاموا في المحيط برحلة جريئة، وعادوا منها بعد تجارب

(١) راجع مقال «عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب» للأب أنستاس مارى الكرملى (عدد ٢ مجلد ١٠٦؛ فبراير سنة ١٩٤٥ من مجلة المقتطف).

قاسية وأهوال شـديدة. ولم يصلنا من أخبار هذه الرحلة إلا ما كتـبه الشريف الإدريسى في كتابه «نزهة المشـتاق في اختراق الآفاق». وقد علق علـيه الأمير شكيب أرسلان في كتابه «الحلل السندسية»، والأستاذ عبد الحميد العبادى في مقـال عن قصة أولـئك الفتيـة المغررين (أو المغربـين؟) قال الإدريسى: «ومن مدينة لشـبونة كان خروج المغـررين في ركوب بحر الظلمات لـيعرفوا مـا فيه وإلى أين انتهاؤه... ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب إليهم يعـرف بدرب المغررين إلى آخـر الأبد. وذلك أنهم اجتـمعوا، ثمـانية رجال كلهم أبناء عم، فأنشـأوا مركبًا حمالا وأدخلوا فـيه من الماء والزاد وما يكفيهم لأشهر. ثم دخلوا البحـر في أول طاروس الريح الشرقية (أي هبوبها) فجـروا بها نحـوًا من أحد عـشر يومًا. فـوصلوا إلى بحر غلـيظ الموج كدر الروائح كثيـر التروش (أي الصخور التى لا يكاد يسـترها الماء) قليل الضوء؛ فأيقنوا بالتلف، فردوا قـلاعهم في اليد الأخرى، وجروا في البحـر في ناحية الجنوب اثنى عشـر يومًا، فخرجـوا إلى جزيرة الغنم، وفيهـا من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحـصيل، وهي سارحة لا راعى لـها ولا ناظر إليها. فـقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فـوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحـد على أكلها، فأخذوا من تلك الغنم فـذبحوها، فـوجدوا لحومـها مـرة لا يقدر أحد علـى أكلها، فأخـذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثنى عشـر يومًا، إلى أن لاحت لهم جزيرة، فنظروا فيها إلى عـمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فـيها. فما كان غير بعيـد حتى أحيط بهم في زوارق هناك، فأخذوا وحملـوا في مركبهم إلى مدينة على ضـفة البحـر فأنزلوا بها في دار، فـرأوا بها رجالا شقـرًا، زعروا شعور رؤوسهم، شعورهم سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب.

فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام. ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي. فسألهم عن حالهم، وفيم جاءوا، وأين بلدهم. فأخبروه بكل خبرهم، فوعدهم خيرًا، وأعلمهم أنه ترجمان الملك: فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك. فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته. فلما علم الملك ذلك ضحك، وقال للترجمان خبر القوم أن أبي أمر قومًا من عبيدة بركوب هذا البحر، وأنهم جروا في عرضه شهرًا، إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى. ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيرًا وأن يحسن ظنهم بالملك ففعل. ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدا جرى الريح الغربية فعمر بهم زورق، وعصبت أعينهم، وجرى بهم في البحر برهة من الدهر. قال القوم: قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها، حتى جئ بنا إلى البر، فأخرجنا وكتفنا إلى خلف، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا؛ فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة، فحلوا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابر، فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا. لا؛ فقال: إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين. فقال زعيم القوم: وا أسفى!. فسمى المكان إلى اليوم »أسفى« وهو المرسى الذى في أقصى المغرب».

وعلى كل حال فإن هؤلاء الفتية استطاعوا العودة إلى لشبونة، كما يؤخذ من سياق الكلام في الإدريسى، وحدثوا أهلها بأخبار رحلتهم؛ ولكن مواطنيهم لم يروا فيهم إلا شبابًا مخاطرين مغررين (أو مغربين، من الاتجاه إلى المغرب؟) حتى عرف الدرب الذى كانوا يسكنونه بهذا الاسم.

وإن تكن معالم هذه القصة صادقة، فإننا لا نستطيع أن نتتبع سير هؤلاء الفتيـة لنتبين الجزر التى وطئتها أقـدامهم في هذه الرحلة؛ ولكننا نرجح أنهم وصلوا أولا إلى مقربـة من إحدى جزائر أزور Azores التى تبعـد عن غربى البرتغال نحو ١٣٧٠ كيلوا مـترًا والواقعة بين خط ٣٧ وخط ٤٠ من العرض الشـمالى وبين خط ٢٥ وخط ٣٢ من الطول الـغربي. والظاهر أنهـا لم تكن مجهولة عند الفينيقيين والقرطاجنيين والنورمنديين والعرب، وإن نسب كشفها في القرن الخامس عشر الميـلادي إلى الفلمنكيين في رواية وإلى البرتغاليين في قول آخر. ولما انحدر الفتية إلى الجنوب وساروا اثنى عشر يوما فالمحتمل أنهم وصلوا إلى جزر مـاديرا. وقد نقل الأستـاذ عبد الحـميد العـبادي عن بعض العلماء الأوروبيين أن بهذه الجزيرة كثيرًا من المعز تقتات بنوع من العشب، هو السبب في مرارة لحومها. أما الجزيرة التى انتهى إليها المغرورون وقبض عليهم فيها، فلعلها إحدى جزر الخالدات أو كنارى، التى تبعد عن الساحل الشمالى الغربي لإفريقية بنحو مائة كـيلو متر والواقعة بين خطى ٢٧ و٢٩ من العرض الشمالى وبين خط ١٣ وخط ١٨ من الطول الغربى. والراجح أن هذه الجزائر كانت معروفة عند الفينيقيين ثم العرب وذلك قبل أن يكشفها الأوروبيون ثانية في القرن الرابع عشر الميلادي.

ولعل هذه القـصة لم تـكن مجـهولة في العـصـور الوسطى؛ بل لعل كولومبس كـان يعرفها، ويعرف قـصصًا أخرى من أخبـار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضه، ومن روايات بعض البحارة في السفن التى كانت تسيـرها بعض البيوت التجـارية إلى ساحل أفريقيـة الغربي وإلى بعض جزر المحيـط الأطلسي، لجلب الذهب والعاج والأحجار الكريمة وغـير ذلك. وكانت تلك البـيوت التجـارية تخفى أعـمالها اسـتئثارا بـالكسب، واحتكارا للتجارة مع تلك الأصقاع.

وأكبر الظن أن هذه القصة أساس رحلة تنسب إلى راهب إيرلندى اسمه القـديس براندان. توفى سنة ٥٧٨م؛ ولكن حـديث رحلتـه لم يظهـر إلا في القرن الحادي عـشر الميلادي. والأرجح أنه خرافة، قـامت على بعض عناصر من قصة الفتية المغررين، وعلى عناصر أخرى من الأخبار العجيبة المعروفة في أسفار السنـدباد البحري[١]، فضلا عن قـصص أخرى في الأدب الكلتى عن رحلات وهمية إلى ما وراء البحار، وقـد اشتهر هذا الراهب بإنشاء عدة أديرة في إيرلندة. ويزعـمون أنه أراد أن يبلغ الجنة التى جـعلها الـله مأوى لعـباده الصالحين. أو أنه أراد أن يجـد مكانًا قصيًـا يعتزل فيـه الحياة الدنيـا، فركب سفـينة ومعه سـبعـة عشر من زمـلائه الرهبان يقـصدون إحدى جـزر المحيط الأطلسى. ولعلهم وصلوا إلى جزيرة من جزر الخالدات؛ ولكتهم لم يستقروا بها بل عادوا إلى إيرلندة. وقص براندان ما شـاهد من العجائب والغرائب في قصيدة طويلة يظن النقاد أنها ترجع إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر بعد الميـلاد. وقد ظل القـوم يعـتقـدون بوجود جـزيرة يطلقـون عليهـا اسم هذا القديس، ويظنونها غربي جزائر الخالدات؛ بل كـانوا يرسلون البعثات لكشفها حتى بداءة القرن الثامن عشر.

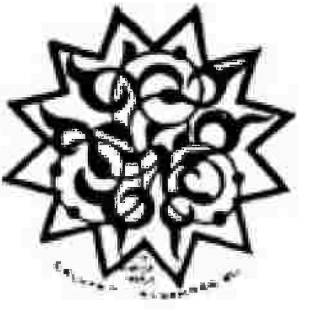

(١) راجع J. De Goeje: La legende de saint Brandan (tiree des actes du 8e Congres international des Orientalistes, teun en 1889 a Stock-hollm et a Christiania, Leyde. 1890)

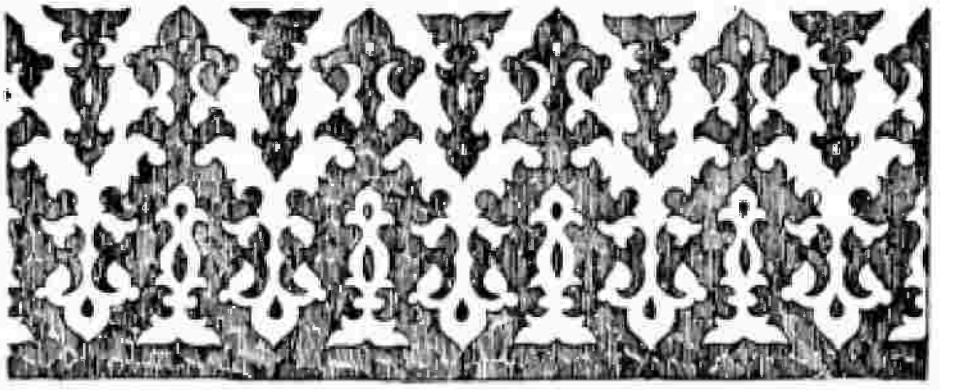

# محمد بن قو سلطان مالى

ومن قصص الرحلات الإسلامية المجهولة حديث سلطان مسلم ركب المحيط الأطلسى لكشف غوامضه؛ وقد جاء ذكره في كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) عند الكلام على مملكة مالى في السودان الغربي جنوبي بلاد المغرب.

وبيان ذلك أن الملك منسا موسى بن أبى بكر ملك مالى مر بمصر في طريقة إلى الحج في عصر الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) فأوفد السلطان الناصر أحد كبار موظفى القصر لاستقباله. واحتفى به الأمراء المصريون[١]، واستفسروا منه عن أمور كثيرة في بلاده ولا سيما استخراج الذهب والنحاس. كما سأله أحدهم عن سبب انتقال الملك إليه، فأجاب بأن ابن عمه السلطان السابق محمد بن قو كان يظن أن «البحر المحيط له غاية تدرك» فجهز مئات من السفن وشحنها بالرجال والمؤن التى تكفيهم سنين،

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ج٦ ص٢٠٠-٢٠١.

وأمـرهم أن يسيـروا في المحـيط وألا يرجـعوا حـتى يبلغـوا نهـايته أو تنفـذ أزوادهم. فغابت السفن مدة طويلة ثم عادت منها سفينة واحد. ومثل قائدها بين يدى السلطان، فسأله عن أمر زملائه؛ فـقال إن السفن سارت زمانًا طويلا وحتى عرض لها في وسط اللجة وادٍ له جرية عظيمة» فابتلع المراكب فلم ينج إلا هذا القائد بسفينته. وقد كانت آخر السفن؛ ولكن السلطان لم يصدق هذا الحديث؛ أو لعله أراد أن يتبين نصـيبه من الصحة، فأعد ألفى سـفينة للرجال وألفًا للأزواد؛ واستخلف ابن عمه منسا موسى في حكم البلاد؛ وأقلع بنفسه على رأس حملته الاستكشافية العظيمة. فكان ذلك آخر العهد به وبمن معه.

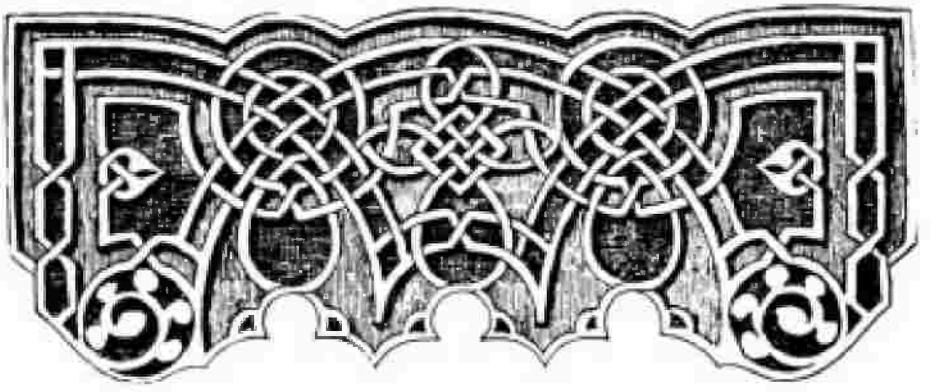

# البيرونى

من العلماء المسلمين الذين كان للرحلات أكبر الفضل في علمهم أبو الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠هـ (١٠٤٨م). وقد امتاز بالاطلاع الواسع، وروح النقد العلمى الدقيق، والعمق في التفكير؛ فحار قصب السبق في الفلسفة والفلك والعلوم الرياضية والتاريخ وعلوم اللغة وتقويم البلدان. وامتدت شهرته في العصور الوسطى إلى أوروبا.

ولد البيرونى ونشأ في إقليم خوارزم. ثم أتيح له بعد ذلك أن يصحب السلطان محمود الغزنوى في فتوحاته بالهند. وقام برحلات طويلة في تلك البلاد، وتعلم لغاتها، وضبط مواقع مدنها، وأصلح بعض البيانات الجغرافية الخاطئة، التى كانت مدونة عنها، وأفاد مما جمعه خلال أسفاره في تأليف كتابه «تاريخ الهند»؛ ولا سيما أنه كان يقبل على البحث والتنقيب وكان إسلامه لا يمنعه من الإخلاص في الحكم على غير المسلمين. والحق أن كل ما كتبه عن الهند يشهد بسعة إطلاعه وكثرة تجاربه ودقة ملاحظاته، وبأنه جال طويلا في تلك البلاد، فعرف آفاقها وخبر أهلها ودرس عاداتهم ومظاهر حضارتهم.

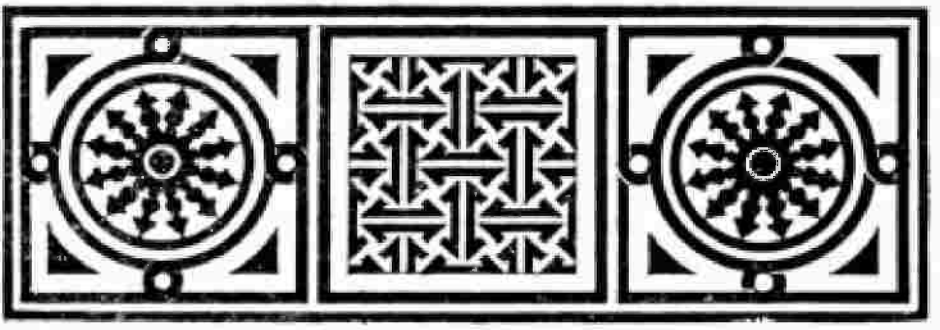

# ناصر خسرو

ولد ناصر سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٣م) في بلدة من أعمال بلغ وتأدب أحسن تأدب. وقام في شبابه بأسفار عديدة في أنحاء إيران وتركستان والهند وبلاد العرب ثم استقر في منصب كبير في ديوان السلاجقة بمدينة مرو. وظل يعيش ترف وبطالة حتى سنة ٤٣٧هـ (١٠٤٥م)؛ فنراه يضحى بمنصبه ويبدأ حياة جد وسفر وعلم وتقوى. وهو يذكر في كتاباته أن السبب في هذا التحول رؤيا ظهر له فيها شيخ طلب إليه أن يكف عن شرب الخمر وعن حياة اللهو والمجون. فسافر لتأدية فريضة الحج وقام برحلات طويلة في الشرق الأدنى بين عامى ٤٣٧ و ٤٤٤هـ (١٠٤٥-١٠٥٢).

ولما عاد إلى وطنه كان قد ترك مذهبه السنى، وأصبح من أشد دعاة الإسماعيلية والمتعصبين للفاطميين. ولا عجب فإنه غادر إيران في وقت انتشرت فيه الاضطرابات واشتد النزاع بين أمراء الأقاليم المختلفة؛ ورأى نفس البؤس في البلاد التى زارها ما خلا مصر، فقد وجد فيها رخاء عظيمًا وأسواقًا عامرة وتحفًا فنية نادرة وهدوءًا شاملاً. وظن ناصر خسرو أن الفضل في رخاء وادى النيل إنما يرجع إلى الدولة الفاطمية ومذهبها الإسماعيلي،

وأن هذا المذهب كفيل بإنقاذ العالم الإسلامي؛ فلم يلبث ناصر أن اتصل ببعض رؤساء الشيعة الإسماعيلية في مصر. والظاهر أن الخليفة المستنصر بالله أحسن استقباله وكلفه بأن يدعو لمذهب الإسماعيلية في خراسان. ولكن السلاجقة لاحظوا خطر هذا الدعوة فاضطهدوا ناصر خسرو، واضطروه إلى الفرار إلى بلاد ما وراء النهر، حيث توفى سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١).

وخلف هذا الرحالة وصفًا دقيقًا لرحلته يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولا فأولا وأنه كان يعنى بالاتصال بالشعوب التى يمر بها، ويتفهم مظاهر الحضارة التى يشاهدها. وحسبنا أن نشير هنا إلى وصفه مدينة القاهرة، وكلامه عن حضارة مصر في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وعنايته بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق، وإلى وصفه الحرم الشريف بالقدس.

وقد ترجمت رحلة ناصر خسرو إلى الفرنسية. وأصبحت مصدرًا أساسيًا في دراسة الحضارة الإسلامية في الشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري والحق أو وصف مصر في رحلة ناصر خسرو يعد من أكثر المصادر التاريخية إمتاعًا وأعظمها شأنا في بيان حال البلاد قبل القحط أو «الشدة العظمى» التى حلت بها في نهاية عصر الخليفة المستنصر[1].

ولا عجب فإن هذا الرحالة لم يكن سائحًا عابرًا؛ بل أقام في مصر نحو أربع سنوات ودون مشاهداته بدقة وإسهاب، فوصف الحياة العقلية وتحدث عن الأزهر ودار الحكمة وجامع عمرو وعن العلماء والفقهاء ودعاة الفاطميين.

(١) راجع كتابنا «كنوز الفاطميين» ص١٠-١٦.

واستطاع أن يدرس الحياة الاجتماعية عن كثب. فذكر مثلا أنه لم يعرف بلدا يستمتع بمثل ما ظفرت بـه مصر من الأمن والهدوء، وأن الصناع والعمال فيها يمنحون أجوراً مرضيـة فيقبلون على العمل بسرور وانشراح، على عكس ما في الأقطار الأخـرى من السخـرة وما إلى ذلك؛ كمـا أن مرتبات القـضاة كانت كبيرة جدًا، ليتم الاطمـئنان إلى عدالتهم وبعدهم عن المؤثرات المختلفة ولتقل حاجتهم إلى الناس.

ولاحظ ناصر أن التجار في مصر كانوا يـبيعون بأثمان محددة وإذا ثبت على أحدهم الغش فـإنه يركب جملا ويوضع في يده جـرس يدقه ويطاف به في البلد ويرغم على أن يـصيح بأعلى صـوته: «لقـد غشـشت وها أنا ألقى عقـابى. جزى الله الكاذبين!». وكـتب كذلك أن البقـالين والعطارين وبائعى «الخردة» كانوا يأخـذون على عاتقهم إعطاء الزجاج والأواني الخـرفية والورق لوضع ما يبيـعونه فيها؛ فلم يكن على المشـترى أن يبحث عما يجعل فـيه ما يقتنيه.

ومما ذكره أن ركوب الخيل كان وقفًا على الجند والمتصلين بالجيش، على حين كان سـائر الأهلين ينتقلون على حـمير ذات سـروج جمـيلة. وكان في الفسطاط والقاهرة نحو خـمسين ألف حمار للتأجير؛ يشاهد المـرء عددًا كبيراً منها عند مداخل الشوارع والأسواق.

وأطنب ناصر خـسرو في التـدليل على ثروة البلاد ورخـائها؛ ووصف مدينة القاهرة وصـفًا شائقًا، وقدر أنها في ذلك الوقت (فـيما بين سنتى ٤٤٩ و٤٤١ هجرية أى ١٠٤٧ و ١٠٥٠م) كانت قد نمت عمارتها، وأصبح فيها ما لا يقل عن عشرين ألف دكان، كلها ملك للخليفة. وكـثير منها يؤجر بعشرة دنانير في الشهر؛ وليس بينها إلا القلـيل تبلغ أجرته في الشهر دينارين. وكان

في القاهرة من الخانات والحمامات عدد وافر جدًا وكلها ملك للخليفة أيضًا. والقصر الملكى وسط المدينة، بينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها. وأسواره عالية فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة، وهو يبدو من خارجها كالجبل. ولم يكن بالقاهرة سور محصن؛ ولكن أبنيتها كانت أعلى من الأسوار المحصنة وفي كل منها خمس طبقات أوست؛ فكأنها القلاع الضخمة. وكانت البيوت مبنية بناء نظيفًا محكمًا وكانت مفصولا بعضها عن بعض بحدائق ترويها مياه الآبار.

وانتقل ناصر خسرو بعد ذلك إلى وصف مدينة الفسطاط جنوبى القاهرة، حيث كانت الحركة التجارية والصناعية فأسهب في الكلام على عظمتها وبيوتها الشاهقة وجوامعها الكبيرة وحدائقها الغناء وصناعتها الزاهرة ووصف الثروة في أسواقها والازدحام فيها؛ وقال إن الحوانيت مملوءة بالسلع المختلفة والأقمشة الثمينة والذهب وسائر الحلى، حتى أن المشترى لا يجد فيها محلاً يجلس فيه.

وذكر هذا الرحالة في مواضع عديدة من حديث رحلته قصصا تشهد بالتسامح الديني الذى عرف عن العصر الفاطمي، وباطمئنان المسيحيين واليهود إلى عدل الخليفة وحكومته. ومن ذلك قصة تاجر مسيحى كان من أغنى الأثرياء في مصر؛ فلا يستطيع أحد أن يحصى أرزاقه وأملاكه وماله من السفن. وقد دعاه الوزير ذات يوم وأخبره أن الخليفة أقلقه وأهمه ما حل بالشعب من الضيق بسبب قلة المحصول ذلك العام، ثم سأله عن مقدار القمح الذى يمكنه أن يبيعه أو يقرضه، فأجاب التاجر بأن عنده من القمح ما يكفى مدينة مصر (الفسطاط) ست سنوات. وقد أعجب ناصر خسرو بما عرف عن الخليفة والحكومة من العدل الذى يسمح لمثل ذلك الرجل أن يمتلك مثل هذه

الثروة وأن يصدق القول بشـأنها بدون أن يخشى مصادرتها أو ضـياع حقه في جزء منها.

وامتـاز ناصر خسـرو بما عرف عن الإيرانيين من الذوق الفني الجـميل؛ حتى أصبـحت ملاحظاته وآراؤه عن الآثار والفنون في رحلته مرجعًـا أساسيًا للمشـتغلين بالفنون الإسلاميـة. فنراه يتحدث عن مراكـز الصناعات والفنون المختلفة، ويصف المساجد، والقصور والخـانات وغير ذلك من مفاخر العمارة الإسلامـية. وتحـدث ناصر عن مـدينة تنيس، وأعجب بما كـان ينسج في أي مكان آخر قصب يوازيه في الجودة والجمال، وبقماش الأبوقلمون، الذى يتغير لونه باختلاف سـاعات النهار، ويصدره المصـريون إلى بلاد الشرق والغرب. كما أعجب بالكتان الذى كان ينسج في أسيوط ويبدو للعين كأنه الحرير.

وأشار إلى صناعة الخزف في العصر الـفاطمي؛ فقال إن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفـة، وإن الخزف المصرى كان رقيقا وشـفافا، حتى لقد كان ميسورًا أن ترى من باطن الأناء الخـزفى اليد الموضوعة خلفه. وكانت تصنع بمصر الفناجين والقـدور وسائر الأواني، وتزين بألوان مختلفـة تختلف باختلاف أوضاع الآنية.

وكان ناصر خسرو شديد الإعجاب بسوق القناديل - بجوار جامع عمرو - فقال إنه لم يعرف مثله في أي بلد آخـر، وإن التحف النادرة والثمينة كانت تحمل إليه من أصقاع العالم كله. وترجع هذه التسمية إلى أن سكان هذا الحي كـان لكل منهم قـنديل على باب مـسكنه. والطريـف أن مـا وصل إلينا من التحف الفنية الفـاطمية يؤيد تمامًا ما كـتبه ناصر خسـرو في هذا الميدان. وقد فصلنا الكلام على ذلك في كتابنا «كنوز الفاطميين».

ولا ريب في أن هذا الرحالة أتيح له أن يدرس مصر دراسـة طيبة خلال

رحلته فيـها، وإن كان من المحتمل أن تعـصمه الشديد للمـذهب الفاطمى قد يكون من أسباب إفراطـه في الإعجاب بثروة البلاد ورخائها وأمنـها والتسامح الدينى فيها وازدهار فنونها وعدالة النظم الاجتماعية فيها.

والحق أن ناصر خسـرو لم يكن شديد الاهتمام بالنظم الاجتمـاعية في مصر فحسب؛ بل نراه يعـرض لما يصادفه من هذه النظم في سائر البلاد التى تجول فيها. مثال ذلك ما كتبه عن إقليم الأحساء في بلاد العرب. فقد أعجب بنظام الحكومة القرمطية فيه. وذكر أنه إذا أعـسر أحد السكان فيه أقرضوه مالا يستـعين به على تدبير أمـوره، وأن الذى يستـدين شيئًـا لا يطالب بدفع ربح عنه، وأن الغـريب الذى يحسن إحـدى الحـرف يقرض عند وصـوله إلى هذا الإقليم مـبلغًـا من المال يسـتعين بـه على شراء عـدده. وإذا تهـدمت دار أو مطحنة، وعجـز صاحبـها عن إصلاحـها، فإن حكام الإقليم يـنيطون ببعض عبـيدهم إتمام هذا الإصـلاح من غير أجـر. وللحكومة في الإحـساء مطاحن تنفق عليها ويطحن الناس فيها قمحهم بالمجان. وقد سجل ناصر إعجابه بهذه النظم التى تذكرنا الآن ببعـض الاتجاهات الاشتراكية في العـصور القديمة وفي العصر الحديث.

***

ودون ناصر في أخبار رحلته أن السـفر في بعض أجزاء بلاد العرب لم يكن ميسـورًا إلا إذا استأجر المسافـر حارسًا من أبناء القبيـلة التى يمر بأرضها ليدله على الطريق ويحميه من اعتداء قطاع الطرق.

ومن طريف ما ذكره ناصر عن البـيع والشراء في أسواق البصرة أن هذه المدينة كانت تقـوم في أنحائها ثلاثة أسواق في اليـوم الواحد، وأن رواد تلك الأسواق كانوا يودعـون أموالهم عند أصحاب المصارف المـالية ويأخذون منهم

إقراراً باستلامها ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه «شيكا» أو «إذنا» يقبض البائع قيمته من صاحب المصرف. وهكذا لا يستعمل التجار النقود في معاملتهم وإنما يستخدمون «الشيكات أو أذنات الصرف» يدفع قيمتها أصحاب المصارف(١).

ولاحظ ناصر خسرو في مدينة طبس (بين نيسابور وإصفهان) أن المرأة لا تخاطب إلا زوجها أو قريبًا لها وأنه إذا ثبت أن رجلاً وامرأة لا قرابة بينهما قد دار بينهما حديث فإن جزاءهما القتل.

وصفوة القول أن رحلة ناصر خسرو في الشرق الأدنى تميط اللثام عن كثير من نظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

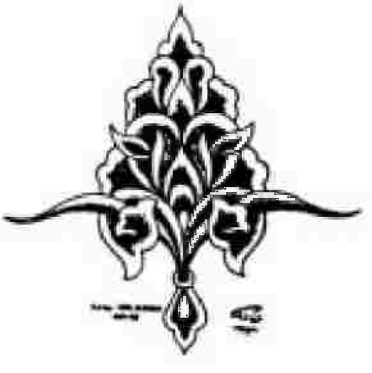

(١) انظر Nasiri - Khosrau: Sefer Nameh ص١٢٩.